



العمارة والتصوير الأدبي والنقد المعماري!



د. وليد أحمد السيد
sayedw03@yahoo.co.uk

لقد كانت العمارة وفهمها. وإن حدث وبشكل نادر، فيبدو أنه قد لا يحقق ما نطرحه هنا وترمي إليه الأطروحة الأساسية التي نقدمها من أجل استرجاع المضامين الكامنة في العمل المعماري، كائنا ما كان سواء تراثيا أو بأي شكل وطراز كان. ولذلك ومن أجل تقديم خلاصة باتت نواة ومحور عملهم كمعماريين. يمكن ان يتبينها برنامج التعليم أو لا، وعصر النهضة يدرك ويقرأ عمله معماري، وبهذا الطريقة تطور طراز عصر النهضة المعماري لا كخواتم تشكيكية فقط ولكن بالتوافق مع تطور الكلمة والنص النقدي المعماري.

ولذلك فقد شاع النقد المعماري وبات يشبه العمل الناتج من العمارة بما ينتج عن الناقد المعماري والنص الكتابي. فمثل النص المكتوب، بات على المعماري دراسة التراث الكلاسيكي بحيث يستطيع إعادة تركيب أجزاءه لمعرفة المغفود والزائد وفهم التطور الزمني. ولذلك أصبحت دراسة تاريخ اللغة نموذجاً لمحاولة فهم الطرز المعمارية. ويؤرخ لذلك سقوط العمارة وتراجعها في العصور الوسطى حيث ساد الغلام الحضاري دول أوروبا نتيجة لضعف اللغة اللاتينية الكلاسيكية - وهي عملية حاول علماء الإنسانيات رآها ومحاولة عكسها. ولهذا السبب امتدح بعض معماريي عصر النهضة محاولات «برونيليشي» حيث رُمِّمَ العمارة الإيطالية لمرحلة مزدهرة سابقة في عصر «سيروس» و«فيرغل»، الذي قارن العمارة في عصر النهضة المتقدم في روما بلغة «القيصر» و«سيروس». وكان لافتا جدا أن «أريتينو» فسّر الطرز الكلاسيكية للأعمدة الرومانية بدلالة اللغة القديمة، حيث أصبح معيار النمط الجيد هو الإلمام بقواعد اللغة، وأصبح «الجمال» يعني «الصواب» و«القبح» يعني «الخطأ».

البرتي» مثلا، وكان ذلك بالنسبة للمعماريين «الأميين» (بالنسبة للكتابات القديمة) بمثابة تعلم الكلام مرة أخرى. وبالنتيجة كان على هؤلاء المعماريين تطوير كتاباتهم الخاصة، ليس فقط لرفع منزلتهم المهنية أمام البلاط، ولكن لأن العلاقة الوثيقة مع الكلمة المكتوبة باتت نواة ومحور عملهم كمعماريين. فمن خلال الكتابة أصبح المعماري في عصر النهضة يدرك ويقرأ عمله معماري، وبهذا الطريقة تطور طراز عصر النهضة المعماري لا كخواتم تشكيكية فقط ولكن بالتوافق مع تطور الكلمة والنص النقدي المعماري.

ولذلك فقد شاع النقد المعماري وبات يشبه العمل الناتج من العمارة بما ينتج عن الناقد المعماري والنص الكتابي. فمثل النص المكتوب، بات على المعماري دراسة التراث الكلاسيكي بحيث يستطيع إعادة تركيب أجزاءه لمعرفة المغفود والزائد وفهم التطور الزمني. ولذلك أصبحت دراسة تاريخ اللغة نموذجاً لمحاولة فهم الطرز المعمارية. ويؤرخ لذلك سقوط العمارة وتراجعها في العصور الوسطى حيث ساد الغلام الحضاري دول أوروبا نتيجة لضعف اللغة اللاتينية الكلاسيكية - وهي عملية حاول علماء الإنسانيات رآها ومحاولة عكسها. ولهذا السبب امتدح بعض معماريي عصر النهضة محاولات «برونيليشي» حيث رُمِّمَ العمارة الإيطالية لمرحلة مزدهرة سابقة في عصر «سيروس» و«فيرغل»، الذي قارن العمارة في عصر النهضة المتقدم في روما بلغة «القيصر» و«سيروس». وكان لافتا جدا أن «أريتينو» فسّر الطرز الكلاسيكية للأعمدة الرومانية بدلالة اللغة القديمة، حيث أصبح معيار النمط الجيد هو الإلمام بقواعد اللغة، وأصبح «الجمال» يعني «الصواب» و«القبح» يعني «الخطأ».



متجذرة في ممارسات البناء وأساليب العمارة في ذلك الوقت حين كان كبير البنائين «يبنى ويشرف بنفسه على عملية البناء وتفسير العمارة من الممثلين إلى الواقع، وبذلك فقد كانت مواقع البناء بمثابة «مختبرات للتعليم»، حيث كان يتم تناقل الخبرات العملية «بطريقة شفوية» من جيل لآخر. وبهذه الطريقة تم تطوير النظام المعماري بشكل عضوي، حيث تطورت الأنظمة المتفرعة عن الطراز القوطي الأول والمتطورة والمتأخر بشكل أشبه بقانون تطور طبيعي.

الكتابة المعمارية لم تكن شائعة في البداية، وإنما جاءت لاحقا لتفسير النواتج التي تتداخل فيها عدة مستويات، أحيانا معقدة، من التداخلات الثقافية والتاريخية والاجتماعية وسواها. ومع ذلك فقد كان جنى «الكلمة» والكتابة لتندم الناتج العمراني مفيدا بشكل كبير لتفسير وفهم كل هذه التداخلات في «بوتقة» التصميم المعماري.

العلاقة بين تطور العمارة واللغة والنقد المعماري المتتبع لتاريخ العمارة في أوروبا في فترات الكلاسيكية، في القرن الخامس عشر، يلاحظ وجود نظامين كانا يتنافسان مع بعضهما البعض: الأول هو النمط «القوطي»، والذي تطور تاريخيا في الأقاليم والمناطق المحلية مع تغيرات طفيفة جغرافيا وعبر الزمن، وتسيّد المشهد المعماري في أوروبا. أما النظام «النهضة»، ويعتمد بالأساس على التراث الكلاسيكي لقارة أوروبا، والذي انتشر في الجزيرة الإيطالية على مدار قرن، ثم امتد ليشمّل الأقاليم الممتدة عبر جبال الألب. المهم بالنسبة لنا هنا أن عملية التطور هذه تزامنت جنباً إلى جنب مع صعود وانتشار الكتابة والنقد المعماري. هل كانت عملية التزامن هذه محض مصادفة؟ بالتأكيد لم تكن كذلك. ولكن السؤال المهم بالتأكيد هو: ما هو وجه العلاقة بين تطور العمارة وبين الكلمة واللغة؟



يعتبر الأب الرائد في مجال كتابة المقالات المعمارية النقدية، لم يكتب فقط في مجال العمارة، ولكنه كتب في مجالات الرسم والنحت. وكان أول مقال نظري له عن الفن بعنوان «اللوحه» أو Della Pittura، وموضوعه الرسم، وكان له مقال لاحق عن النحت. منذ عصر النهضة لوحظ أن الفن عموماً نشأ جنباً إلى جنب مع الأدب والفكر التنظيري، وسبب ذلك كان يعود لفكرة «فصل» وتمييز الفنان عن الحرفي من ناحية فكرية ومعرفية، مما مهد لتكوينه من المشاركة والمساهمة في السجلات الفكرية مع الباحثين والشعراء والأدباء. لكن للأسف بالنسبة للمعماري لم يكن ذلك متحققاً إلا بشكل جزئي. وقد كانت ممارسة الفن بإطارها العام لا تعني بالضرورة «الإنخراط» في العمل الحرفي ذاته، وإنما جاء الفن في منظوره العام في إطار التخصصية والإشراف دون العمل الحرفي. ومن هنا كان ممكناً للطبقة الأرستقراطية، وحتى بعض الأشراف، ممارسة الفن، فلم يكن تعلمه يتم «بالطريق الصعب»، خلافاً لما تتطلبه العمارة والأدب وهو القاسم المشترك بينهما. الجمع بين العمارة والكتابة كان يتطلب موهبة فذة من معماريين من طراز «البرتي»، والذي كان باحثاً ومهتماً بالكتابة. إذ لم يكن عنده أي تدريب في أمور الحرفية، لم يكن بمقدوره أن يصيغ نحاتاً جيداً أو رساماً عندما كان يعامل للفن في مقتبل شبابه، لكنه كان واحداً من أعظم معماريي عصره. وبالقياس بعدد المعماريين الذين كانوا يهتمون بالكتابة، فقد كان عدد الفنانين وكان (الكتاب) المعماري الذي يفتقد إلى درجة ملحوظة كتاباته على بقية إنجازاته العملية الأخرى هو المعماري «فيتروفيوس» قديماً، والمعماري «سيباستيانو سيرليو» و«بول دكر» في الفترة الحديثة. وبالإضافة لهم كان هناك معماريون كثر يمتازون أمثال «فينولا» و«بالابيو» والذين نبواوا مراكزهم في تاريخ العمارة لكتابتهم في العمارة وموضوعاتها. وبعد هذا وذاك يطرح تساؤل عن مدى إسهام المعماريين في تطوير النظريات المعمارية. ولو خصصنا هذه التساؤلات ووجهناها للعالم العربي فيلنأكد سيكون لها منحنى خاص قد يتسم «بالدراما» قياساً على المشهد المعماري وحركة النقد المعماري في الإطارات العالمية.

«استرجاع» المشهد العمراني في التصوير الأدبي قدمنا في المساحة السابقة لأهمية تطوير برامج، مؤسسية وحكومية، من أجل تطوير التعليم المعماري وذلك بهدف إنتاج معماريين أدياء يدفعون باتجاه قراءة المشهد العمراني، والتراثي، وتحويله من انطباعات يومية إلى نصوص «بلاغية أدبية». وقدما إلى ان ذلك إنما هو عملية إعادة «تركيب» المشهد المعماري ولكن باستعمال لغة الحوار المكلمة للعمارة والغائبة اليوم عن عملية التصميم، وبهذا فهي العملية المعاكسة لعملية التصميم المعماري والحضري، والتي يبرسومها ويموججها يمكن «الغوص» في أعماق المحادثات الثقافية والمحتويات الاجتماعية والنفسية والظرافية وضمن أطر الزمان والمكان، بهدف إعادة قراءة العمارة الناتجة وتحويلها إلى «خطاب أدبي» توصيفي يمكن قراءته مرات ومرات وعرضه وتحليله. ومن هنا نعيد طرح التساؤل الذي انتهينا إليه في المساحة السابقة وهو: إلى أي مدى يمكن تسجيل الإنطباعات «البلاغية» الأدبية بحيث تسهم في تحقيق الهدف من إعادة العلاقة بين العمارة والكلمة، وهل من الممكن الاعتماد في تطوير لغة إعادة قراءة العمارة على التخصصين في العمارة بتعليمهم الحالي أم لا بد من مراس وتدريب وتطوير التعليم المعماري لهذا الغرض ضمن برامج حكومية وجامعية؟ من البدهي القول أن العلاقة بين العمارة والنص في التعليم المعماري تحتاج لمرجعة أوسع وتأسيس بشكل أفضل لتطبيقاتها لتصبح علاقة مثل «الكف بالقفاز». وبخاصة في مراحل تأهيل المعماريين وتدريبهم الأساسي. وتبرز أولى العقبات في غياب العلاقة بين المعماري والأدب بشكل عام. ومن أجل فهم أعمق للمشكلة سنقدم لثلاثة مقاربات تعتمد العلاقة بين العمارة والأدب واللغة قياساً على بعض المحطات من تاريخ العمارة وتطور النقد المعماري.

علاقة العمارة والأدب مقابل الفن والكلمة إذا تساءلنا عن علاقة المعماريين بالكتابة والأدب، فربما يتوجب علينا أيضاً أن نتساءل عن طبيعة الكتابة وموضوعاتها. وبعد هذا وذاك يطرح تساؤل عن مدى إسهام المعماريين في تطوير النظريات المعمارية. ولو خصصنا هذه التساؤلات ووجهناها للعالم العربي فيلنأكد سيكون لها منحنى خاص قد يتسم «بالدراما» قياساً على المشهد المعماري وحركة النقد المعماري في الإطارات العالمية.

علاقة العمارة والأدب مقابل الفن والكلمة إذا تساءلنا عن علاقة المعماريين بالكتابة والأدب، فربما يتوجب علينا أيضاً أن نتساءل عن طبيعة الكتابة وموضوعاتها. وبعد هذا وذاك يطرح تساؤل عن مدى إسهام المعماريين في تطوير النظريات المعمارية. ولو خصصنا هذه التساؤلات ووجهناها للعالم العربي فيلنأكد سيكون لها منحنى خاص قد يتسم «بالدراما» قياساً على المشهد المعماري وحركة النقد المعماري في الإطارات العالمية.